الفصل الخامس

الإيدز ليس هو العدو:
الخطيئة، والفداء، وصناعة الحفاظ على العذرية

♦

في كل عام، وعلى مدى الاثني عشر عاماً الماضية، يعقد دي جيمس كيندي مؤتمر استعادة أمريكة للمسيح. وعادة يتم ذلك في كنسية كورال ريدج كاتدرائية في مدينة فورت لوديردیل. ويجمع المؤتمر الذي يستمر يومين مئات المخلصين من القوميين المسيحيين للاستماع للمحاضرات والندوات، وإخلاص العمل لتمهيد الطريق أمام المؤمنين لاستعادة (الأرض الأمريكية) كما جاء في الموقع الإلكتروني للمؤتمر عام 2001. ومن بين المتحدثين في هذا المؤتمر روي موور، وديفيد بارتون، ورك سكاربورو، إلى جانب شخصيات من أعوان الحزب الجمهوري مثل: المحقق كينيث ستار، الذي تولى التحقيق مع الرئيس السابق بل كلينتون، وملاحقته في قضيتي استثمارات وايت ووترز ومونيكا لوينسكي.

وألقى دان كويل الذي شغل منصب نائب الرئيس في عهد جورج بوش الأب، كلمة الافتتاح في المؤتمر الأول لاستعادة أمريكة للمسيح عام 1994. ويصف فريدريك كلاركسون ذلك المشهد في كتابه عداوة أبدية، قائلاً: «كان خطاب كويل عادياً جداً، فيما عدا وجوده في أثناء أداء الحضور قسم الولاء (للعَلَم المسيحي) الذي سبق إلقاء كلمته. والعلم المسيحي مكون من مستطيل أبيض وفي الزاوية الشمالية العليا يوجد صليب ذهبي على خلفية حقل أزرق. وكان هذا العلم يرفرف خارج مقر كيندي في كورال ريدج. وأقسم الحضور معاً اليمين الآتي: «أتعهد بالولاء للعلم المسيحي، وللمخلِّص، الذي يمثل هذا العلم مملكته، مخلّص واحد «قتل على الصليب» وسوف يعود مرة أخرى، مع الحياة والحرية لكل المؤمنين»[100].

لكل المؤمنين. إن مؤتمر استعادة أمريكة للمسيح هو المكان الذي يخلع فيه المسيحيون القوميون أقنعتهم الديمقراطية، وينغمسون في أحلامهم الثيوقراطية. لذلك، كانت بام ستنزل المتخصصة في تعليم العفاف، تعلم حين تحدثت في مؤتمر عام 2003، أنه لا يلزمها أن تقدم أي حجج منمّقة عن الصحة والسياسة العامة لتسويغ اعتراضها على تعليم الجنس في المدارس الحكومية. وأن بإمكانها أن تكون صريحة فيما يتعلق بالأسباب الحقيقية التي توجب على المجتمع عدم التسامح مع إقامة العلاقات الجنسية قبل الزواج، وهذا هو السبب، لأن هذا الفعل - كما عبّرت عنه بصوت صارخ في لحظة مشحونة بالعواطف ـ «خطيئة قذرة، ومقرفة، ومقززة، وعفنة!».

والسيدة ستنزل فتاة ذات شعر أسود، حسناء ممتلئة، وتنحدر من ولاية مينيسوتا، وتحمل درجة علمية في علم النفس من جامعة الحرية التي تعود لجيري فالويل. وتتكسب ستنزل من نهي المراهقين عن ممارسة الجنس قبل الزواج، بل الأحرى أن نقول: إنها تتكسب عن طريق (محاولة) نهي المراهقين عن ممارسة الجنس، كما تقول هي في شريط فيديو لها بعنوان: (لا لإقامة علاقات جنسية غير شرعية)، إذا أقمت علاقة جنسية خارج الزواج «مع شخص لا يقيم علاقة إلا معك.. فسوف تدفع الثمن». وجزء من مهمتها هو زعزعة ثقة طلبة المدارس بكفاءة الواقيات الذكرية وفاعليتها في الحماية من الحمل والأمراض الجنسية السارية. وتقول: إنها تخاطب نصف مليون من طلبة المدارس كل عام، وإن ملايين آخرين يتلقون رسالتها عبر أشرطة الفيديو.

أضحت صناعة العفاف صناعة رائجة ومربحة هذه الأيام بفضل جورج دبليو بوش. وتقع ستنزل في طليعة هذه الصناعة. فقد عينها بوش على رأس لجنة مهمات خاصة في وزارة الصحة والخدمات الإنسانية للمساعدة في تدريس العفة، ووضع إرشاداته العامة. كما دعيت للتحدث في البيت الأبيض، وفي هيئة الأمم المتحدة، واستطاعت شركتها غير الربحية المسماة إنلايتنمت كميونكيشن (التواصل المستنير)، التي تنظم خطباً وندوات عن العفة في المدارس الحكومية، أن تحصد عدة مئات من آلاف الدولارات في أثناء ولاية جورج بوش الأولى.

وفي أثناء انعقاد مؤتمر استعادة أمريكة للمسيح، تحدثت ستنزل إلى الحضور عن حوار دار بينها وبين رجل أعمال متشكك في أثناء سفرها جواً. إذ سألها الرجل عن نسب نجاح تعليم العفة، وهو سؤال يعد في نظرها مثيراً للسخرية. وقالت: «ما يسأله هو: هل يفلح هذا التدريس حقاً؟ هل هناك فرق؟ لأنه - وكما تعلمون - ليست مهمتي منع الأولاد من ممارسة الجنس. وليست وظيفة المدارس الحكومية منع الأولاد من ممارسة الجنس».

ثم ارتفعت وتيرة صوتها، وبدأت ملامح الغضب تظهر عليها، وهي تصرخ: «إن مسؤوليتنا هي أن نقول الحقيقة!».

وصرخت قائلة: «أيها المؤمنون، هل لي أن أتوسّل إليكم، أن تلزموا أنفسكم بالحقيقة، لا بما يفلح للحقيقة! ولا يهمني إن كانت ستفلح أم لا؛ لأنني في النهاية لست مسؤولة أمامكم، بل مسؤولة أمام الرب!».

وفي أثناء حديثها، شرعت ستنزل توضح لماذا تعدّ أن (ما يفلح) ليس هو المهم والمعوّل عليه، وكشفت عن بعض مغازي ما تقصده بعبارة (الحقيقة). فقالت: «أيها المؤمنون، اسمحوا لي أن أقول لكم شيئاً راديكالياً، ولا يمكنني أن أتحدث بهذا الحديث إلا هنا... إن الإيدز ليس هو العدو. ولا هو الأورام الحليمية -أورام الثدي-، ولا استئصال الرحم في سن العشرين. وليس الحمل غير المنشود هو العدو. بل العدو هو أن يعتقد ابني أن بإمكانه أن يلوّح بقبضة يده في وجه (الرب المقدس)، وأن يقترف الخطيئة دون تبعة، وأن يقضي ابني حياته الأزلية معزولاً عن الرب، هذا هو العدو. إنني لن أدرس أولادي أن بإمكانهم أن يرتكبوا المعصية بأمان وسلام».

ثم صفق الحضور بحرارة.

وبالطبع، لا يقتصر تدريس ستنزل لهذه المبادئ على أبنائها وحسب.

♦

عرفت الولايات المتحدة برامج تشجيع طلبة المدارس على الامتناع عن ممارسة الجنس المدعومة من الحكومة أول مرة عام 1980، حين خصص مبلغ 11 مليون دولار بمقتضى قانون المراهقين والحياة الأسرية. ولم يكن ذلك المبلغ كافياً لإحداث أي تأثير يذكر. إضافة إلى أن القانون نفسه تعطل عن العمل بسبب الطعن الذي قدمه الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية. ولم تبدأ المخصصات المالية بالوصول إلى برامج تشجيع الامتناع عن ممارسة الجنس إلا عام 1996، حين نصت فقرة في قانون إصلاح المعونة الوطنية- إذ أضيفت تلك الفقرة في اللحظة الأخيرة من مناقشات إقرار القانون، دون أن يلحظها أحد، ودون مناقشة ـ على تخصيص مبلغ 250 مليون دولار لغايات تعليم الامتناع عن ممارسة الجنس وتشجيعه، بحيث يوزع المبلغ على مدى خمس سنوات. وطلب من الولايات التي ترغب في المشاركة في هذه البرامج، والحصول على المخصصات الفدرالية أن تسهم من ميزانياتها الخاصة بثلاثة دولارات مقابل كل أربعة دولارات تحصل عليها من المخصصات الفدرالية.

كان ذلك مبلغاً كبيراً من المال، ولكنه لم يكن يصرف دائماً كما يرغب المحافظون. فقد كان المسؤولون في دوائر الصحة - وهم لا يؤمنون بجدوى الامتناع عن ممارسة الجنس - يصرفون تلك المخصصات في وجوه أخرى. واستخدمت ولاية هاواي تلك الأموال لتمويل الدروس الإضافية بعد ساعات الدوام الرسمي وفي الأنشطة غير الدراسية، وصرفت ولاية ماسيتشيوستس ما حصلت عليه من تلك المخصصات في التوعية والإعلانات عن الخدمات العامة. ورفضت ولاية كاليفورنيا المشاركة في هذا البرنامج أصلاً[101].

أما في عهد بوش، فقد أصبح لفكرة الامتناع عن ممارسة الجنس حركة خاصة بها قائمة بذاتها، تتلقى التمويل من الحكومة الاتحادية، وتطور البنية التحتية لتطبيقها. وفي ميزانية عام 2006، طلب الرئيس الأمريكي تخصيص مبلغ 207 ملايين دولار لتدريس الامتناع عن ممارسة الجنس، وهو ما يشكل زيادة بمقدار 39 مليون دولار عن مخصصات العام السابق. ومع نهاية الولاية الأولى لبوش، كانت الحكومة قد أنفقت

مـا مقداره مليار دولار على برامج العفـة، وكان 30 % من المدارس التي تبنت مناهج التربية الجنسـية تقتصـر على تدريس الامتناع عن الجنس وحده حصراً[102]. ذلك أن القانون لا يسمح للبرامج التي تتلقى دعماً من الحكومة الفدرالية أن تدرس أو تناقش وسائل منع الحمل، باستثناء الإشارة إلى معدلات فشلها. ويجب على تلك البرامج أن تدرس أن «الامتناع عن ممارسـة الجنس هو الطريقة المتيقنة الوحيدة لتجنب حدوث حالات الحمل خارج العلاقة الزوجية، وتجنب الإصـابة بالأمراض الجنسية السارية، وغيرها من المشكلات الصحية المصاحبة»، وأن «ممارسة الجنس خارج إطار العلاقة الزوجية يؤدي في الغالب إلى آثار نفسية وجسدية وخيمة».

تشـير معظم الأبحاث إلى أن برامج الامتناع عن ممارسـة الجنس لا تفعل الكثير في منع المراهقين عن ممارسـة الجنس، وإن كان بعضـها يفلح في تأخير فقدان بعض المراهقين عذريتهم، وهو أمر يعد في نظر معظم البالغين شيئاً إيجابياً. وعلى أي حال، فإن أي مزايا صحية لهذه البرامج تفقد ثمرتها بسبب إصرار حركة الامتناع على بث رسـالة سلبية مناهضة لاسـتخدام الواقي الذكري. وهي رسالة تحمل المراهقين على عدم الاكتراث باسـتخدام الموانع والواقيات حين يمارسـون الجنس. وقد تبين بحسب بحـث قام به عالمـا الاجتماع بيتر بيرمان وحنّة بروكـنر، أن المراهقين الذين يأخذون على أنفسـهم عهـداً بالحفاظ على عذريتهم - وهذا القسـم من العناصـر المهمة في برامج تشـجيع الامتناع عن الجنس - يمارسون الجنس بمعدل عام بعد 18 شهراً من الذين لا يقسـمون ذلك القسـم. إلا أن بيرمان وبروكنر وجدا أيضاً أن الذين أقسموا اليمين كانوا أكثر احتمالاً من غيرهم في الانخراط في أصناف أخرى من الجنس مثل ممارسـة الاتصـال الجنسي عن طريق الفم والشـرج في مدة الامتناع هذه، كما أنهم كانوا أقل احتمالاً في اسـتخدام الواقيـات الذكرية حين يفقدون عذريتهم، أو في طلب العلاج بعد الإصابة بالأمراض الجنسية المعدية[103].

وفي عام 2005، أُعدَّت دراسة برعاية حكومة ولاية تكساس عن برامج الامتناع عن ممارسـة الجنس التي طبقها بوش حين كان حاكماً للولاية، ثم جعلها نموذجاً يحتذى به في الولايات كافة حين أصبح رئيساً لها. وبينت الدراسة أن النشاط الجنسي ازداد

لدى طلبة الثانوية بعد تلقيهم دروساً في العفة والحشمة. مع أن الباحثين يعزون هذه الزيادة إلى التقدم في السن، لا إلى تدريس الامتناع عن ممارسة الجنس الذي بدا أنه قليل الأثر في جميع الأحوال[104].

ولذلك، إذا كان الهدف هو منع حدوث الحمل، والحد من انتشار الأمراض الجنسية المعدية بين المراهقين، فإن برامج تشجيع الامتناع عن ممارسة الجنس غير ناجعة في تحقيق النتائج المرجوة منها. ومع ذلك، وكما علقت بام ستنزل بوضوح، فإن صناعة العفاف كانت دائماً أكثر اهتماماً بالأخلاق العامة منها بالصحة العامة.

♦

كان اليمين المحافظ يستهدف التعليم الجنسي الشامل منذ زمن بعيد. ففي الستينيات، كانت الجماعات اليمينية مثل جمعية جون بيرتش، والحملة الصليبية المسيحية تربط التعليم الجنسي بالمؤامرة الشيطانية على القيم الأخلاقية الأمريكية. وفي كتيب صدر عن الحملة الصليبية المسيحية عام 1968 بعنوان: (هل المدرسة هي المكان الأنسب لتدريس الجنس الفاضح؟)، وحذّر الكتيب من أنه إذا «ترسخت الأخلاق الجديدة في المجتمع، فإن أولادنا سيصبحون أهدافاً سهلة للماركسية، وغيرها من الفلسفات الشهوانية وغير الأخلاقية - فضلاً عن الأمراض الجنسية المعدية!»[105].

ومع أن الإنسانية العلمانية حلت هذه الأيام محل الماركسية في معظم مقالات المعارضين للتعليم الجنسي، إلا أن حججهم الجوهرية بقيت كما هي دون تغيير. كما أن الأسلوب الموسع الذي تبناه اليمين في حل المشكلة شهد تطوراً ملحوظاً، يشبه إلى حد كبير الأسلوب الذي اتبعوه في التصدي لنظرية التطور. في البداية، كان مبتغى الناشطين من اليمين المسيحي المحافظ هو الإبقاء على كل من داروين والتربية الجنسية، خارج المدرسة. ولما فشلوا في ذلك، قاموا بتطوير بنية تحتية بديلة شبه علمية لإضفاء الشرعية على معتقداتهم الدينية، وبلغة علمية، آملين في استخدامها بديلاً عن المذاهب التي يعترضون عليها.

ويعمل التمويل الحكومي لبرامج تشجيع الإحجام عن ممارسة الجنس قبل الزواج على ضخ المال الفدرالي في هذه الشبكة. ويتم توزيع الأموال بطرق مختلفة. فبعضها يذهب مباشرة إلى معلمي العفة وإلى مؤلفي الكتب المنهجية التي تدرس ذلك. وبعضها يذهب إلى المدارس لتستخدم تلك الأموال في شراء الكتب أو استضافة خطباء لإلقاء المحاضرات في هذا الموضوع، مثل ستنزل التي تتقاضي مبلغ 3500 إلى 5000 دولار على الخطاب الواحد. وفي واحدة من الحالات الفظيعة، ذهب أكثر من مليون دولار لمؤسسة تدعى سيلفر رينغ ثينغ، وهذه المؤسسة – وبحسب ما ادعاه الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية في الدعوى القضائية التي رفعها على هذه المؤسسة عام 2005 – أقامت اجتماعاً دينياً مدته ثلاث ساعات لإيقاظ الروح الدينية لدى الطلبة المشاركين، حيث يلح المشرفون على الصبية بقبول يسوع المسيح مخلصاً شخصياً*. (هذا، وتصف الرسالة الإخبارية التي تصدر عن سيلفر رينغ ثينغ (مهمتها) بهذه العبارة: «توفير علاقة شخصية مع يسوع المسيح بوصف ذلك هو الطريقة المثلى لعيش حياة جنسية صافية»).

إضافة إلى ذلك، تشير الأرقام الصادرة عن مجلس المعلومات الجنسية والتعليم الجنسي في الولايات المتحدة أنه بحلول عام 2005، تم صرف مبلغ 130 مليون دولار من الأموال المخصصة لتشجيع الامتناع عن ممارسة الجنس إلى مراكز مناهضة الإجهاض وأزمات الحمل، وفي هذه المراكز ولدت الحركة المنظمة لتدريس الامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج في المدارس، وهذه الحركة عنصر مهم في البنية التحية للحركة المعارضة للإجهاض. ولهذه المراكز سجلات طويلة وموثقة في الكذب على النساء فيما يتعلق بصحتهن الجنسية، إلا أن ذلك لم يوقف بوش عن وضع هذه المراكز على قائمة المستفيدين من المال العام.

* بعد ثلاثة أشهر من رفع تلك الدعوى، أقرت وزارة الصحة والخدمات الإنسانية أن نشاط سيلفر رينغ ثينغ «يحتوي على عناصر علمانية، وأخرى دينية، وأنه لا يوجد تدابير احترازية لدى تلك المؤسسة تحول دون الخلط بينهما.» وأمرت الوزارة سيلفر رينغ ثينغ أن تخضع «لخطة عمل تصحيحية»، قبل أن تتلقى المزيد من المنح الحكومية. انظر مقالة سيسي كونولي، (وقف التمويل الفدرالي لجماعة تدرس الامتناع عن ممارسة الجنس)، واشنطن بوست، 23 أغسطس، 2005.

خديعة مقدسة:

تحاكي مراكز أزمات الحمل في مظهرها العيادات الطبية النسائية، غير أن هذه المراكز وجدت لهدف وحيد؛ هو منع النساء عن إجراء عمليات الإجهاض. وقد وجدت هذه المراكز قبل صدور حكم المحكمة العليا في قضية (روو ضد ويد) في الولايات التي كانت تطبق قوانين إجهاض ليبرالية، إلا أن هذه المراكز شهدت انتشاراً واسعاً في الثمانينيات، ويوجد اليوم أكثر من أربعة آلاف من هذه المراكز، وهي في تزايد مطرد. وتتخذ هذه المراكز في العادة مسميات محايدة من قبيل (مركز مورد المرأة) أو (مركز مساعدة الحمل)، وتغري هذه المراكز النساء بتوفير فحوص مجانية للتيقّن من وجود الحمل أو عدمه. وبعضها اختار ممارسة نشاطها في المبنى نفسه الذي توجد فيه مراكز إجهاض أخرى، مستخدمة لافتات وشعارات شبيهة بتلك التي تستخدمها مراكز الإجهاض، أملاً في استدراج النسوة المتوجهات إلى تلك المراكز إليها.

وتنصح مؤسسة يرسون - وهي الآن مؤسسة بائدة، كان مقرها في مدينة سانت لويس، وكانت تدير عشرات من تلك المراكز - باستخدام هذه الحيلة التي أوردتها في دليل عملي عنوانه: (كيف تنشئ وتشغل بنفسك مركزاً لأزمات الحمل ومناهضة الإجهاض للمحتاجين). «1 ـ إذا وقع بصر الفتاة التي تنوي التوجه إلى غرفة الإجهاض على مكتبك الذي يحمل اسماً مشابهاً أولاً، فإنها على الأغلب ستأتي إلى مركزك».

وبعد أن تدخل المرأة إلى مركز طوارئ الحمل، يطلب منها أحياناً مشاهدة فيلم مروع عن الإجهاض، قبل أن يسمح لهن بالاطلاع على نتائج فحص الحمل. وفي العادة تقدم لهن معلومات خاطئة ومبالغ فيها عن الآثار الجانبية للإجهاض، ويقدمها أحياناً ناشطون في الحركة المعارضة للإجهاض، يلبسون معطفاً أبيض للإيحاء بأنهم من المهنيين العاملين في الحقل الطبي. وتقوم هذه المراكز بشراء أجهزة تخطيط تصواتي، على أمل أن تقل رغبة المرأة التي تشاهد صور الجنين في رحمها في إجهاض ذلك الجنين. وينقل الموقع الإلكتروني لمنظمة بلاند بيرنتهود (الأمومة المنظمة)، قصة امرأة دخلت عن طريق الخطأ إلى أحد مراكز طوارئ الحمل الواقع في العمارة نفسها التي يوجد فيها عيادة تابعة لبلاند بيرنتهود في مقاطعة بروكلين في نيويورك، وحين

قدمت لها نتائج تخطيط الأمواج فوق الصوتية لصورة الجنين كتب تحتها عبارة: (مرحباً يا أمي!)[106].

تقدم مراكز طوارئ الحمل بعض الأعمال الخيرّة ـ كمساعدة النساء الحوامل في شراء ملابس الطفل والمصاريف الطبية على سبيل المثال ـ إلا أن ممارساتها الخادعة أدت إلى رفع عدد من الدعاوى القضائية عليها، وإلى عدد من التحقيقات الحكومية في ممارساتها. وفي عام 1991، عقد السيناتور رون ويدن من ولاية أوريغون ـ وكان وقتها عضواً في مجلس النواب ـ جلسات تحقيق واستجواب عن مراكز طوارئ الحمل، وخلص بالنتيجة إلى أنها: «تظهر للناظر بأنها عيادات طبية، ولكن حين تدخل المرأة إلى الداخل، فلا تجد أي متخصص بالطب. بل تفاجأ بحملة شرسة حادة مقتحمة مناهضة للإجهاض». وفي عام 2002، شن المدعي العام في نيويورك إليت سبيتزر تحقيقاً شاملاً مع عدد من مراكز طوارئ الحمل، وانتهى التحقيق بعد أن تعهدت تلك المراكز بأن تكون أكثر وضوحاً مع مراجعيها عن الخدمات التي يقدمونها، والتي لا يقدمونها.

ولا ريب أن بعض النساء اللاتي يجرين فحصاً للحمل في مراكز طوارئ الحمل، لا يكون لديهن حمل. فمن النساء الناشطات جنسياً وغير المهيآت للأمومة، هذا الصنف من النساء بحاجة إلى المساعدة في تجنب حدوث حمل غير منشود في المستقبل. إلا أن كثيراً من مراكز طوارئ الحمل تعارض انطلاقاً من مبادئ أيديولوجية وسائل تنظيم الحمل. وكما ينصح دليل مؤسسة بيرسون: «إياك أن ترشد المراجعات إلى وسائل منع الحمل، أو أن تحيلهن إلى وكالات توفر لهن وسائل منع الحمل». لأن مثل هذا الإرشاد «لا يقتصر على كونه غير دقيق وحسب، ولكنه غير مقبول، ويتعارض مع الفلسفة المعارضة للإجهاض، ومع المبادئ المسيحية».

وفي ظل الافتقار إلى بدائل أخرى في الإرشاد، مهدت مراكز طوارئ الحمل الطريق أمام تدريس الامتناع عن ممارسة الجنس. وشجعوا مراجعيهم على التوقف عن ممارسة الجنس، وقبول (عذرية ثانوية). ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأ العاملون في مراكز طوارئ الأسرة بنشر هذه الرسالة في المجتمع الخارجي، وراحوا

يلقون المحاضرات في المدارس، والكنائس، والمراكز الاجتماعية. وتحول بعضهم إلى قادة في حركة ترويج الامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج. وكانت ستنزل واحدة من هؤلاء. فهي مناضلة متفانية في الدفاع عن حق الحياة، ومعارضة الإجهاض، فهي تتحدث دائماً عن كيفية مجيئها إلى هذه الحياة حين تعرضت أمها للاغتصاب وهي في الخامسة عشرة من عمرها. بدأت ستنزل عملها في تقديم الإرشاد عن الاستعفاف حين كانت تعمل مديرة مركز ألفا النسائي، وهو مركز لطوارئ الحمل في ولاية مينيسوتا.

وحين توافرت المنح الحكومية لتدريس العفة، استثمر قدامى العاملين في مراكز طوارئ الحمل بنجاح خبرتهم للحصول على التمويل الحكومي. فمثلاً، يوجد في مدينة أوستن بولاية تكساس برنامج يدعى لايف غارد لتربية الشخصية والتعليم الجنسي، يديره مركز لايف كير لخدمات الحمل، وهو مركز طوارئ حمل أنشأته سوزان أولاسكي، زوجة مارفين أولاسكي. وتلقى برنامج لايف غارد عام 2004 أكثر من 50 ألف دولار من المخصصات الفدرالية لتنفق على محاضرات تقدم في المدارس عن أخطار ممارسة الجنس قبل الزواج، ولعقد لقاءات توعية مع أولياء أمور الطلبة[107].

وتقوم برامج تشجيع الامتناع عن ممارسة الجنس بدورها بتمجيد عمل مراكز طوارئ الحمل. ويقدم دليل المعلمين من منظمة ويت للتدريب – وهي سلسة مشهورة من مناهج تدريس الامتناع عن ممارسة الجنس – أمثلة للموضوعات التي يمكن أن تعطى للطلاب لكتابة تقارير بشأنها، من ضمنها (مساعدة مراكز طوارئ الحمل)[108]. أما كتاب الجنس والشخصية – وهو كتاب مقرر تصدره الشركة نفسها التي أصدرت كتاب (عن الباندا والإنسان) – فيحتوي على قسم يعالج معنى (الرأفة)، ويقدم مثالاً عليها «بالأشخاص الذين يتطوعون للعمل في مراكز طوارئ الحمل، ويفتحون بيوتهم للفتيات الحوامل اللاتي يحتجن إلى أماكن للإقامة فيها»[109].

سيدة العفة والصفاء:

يقع مركز آبستينانس كليرنيغهاوس (مركز معلومات العفاف) الذي يعد بحق المركز الرئيس لحركة تشجيع الامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج، في مبنى مكون من طابق واحد في مدينة سو بولاية داكوتا الجنوبية، وهو المبنى الذي كان يضم في السابق مركزاً لطوارئ الحمل يعرف بمركز ألفا. وكلا المنشأتين أسستهما لزلي أونره عميدة صناعة العفاف، والزائرة المتكررة للبيت الأبيض.

طورت أونره رسالتها ـ مثل معظم المشتغلين في تشجيع الامتناع عن ممارسة الجنس ـ في مركز طوارئ الحمل الذي أنشأته عام 1984. وقامت النساء البائسات اللاتي قصدنها للمساعدة، بحفزها على تقديم محاضرات عن الطهارة الجنسية في المدارس والكنائس المحلية. وبحلول عام 1993، كانت أونره عضواً في مجموعة تطلق على نفسها ائتلاف معلمي العفة. ويذكر الموقع الإلكتروني لمركز معلومات العفاف أنه عقب كل محاضرة يلقيها أعضاء ائتلاف معلمي العفة، «تنهال عليهم سيول من الطلبات لموارد معتمدة عن العفة والاحتشام... وبات واضحاً لهم جميعاً الحاجة إلى موقع مركزي لتقويم المواد المتعلقة بالامتناع عن ممارسة الجنس إلى حين الزواج وجعلها متوافرة بسهولة لمن يطلبها».

ولتلبية تلك الحاجة، أسست أونره مركز معلومات العفاف عام 1997. ويضم المجلس الاستشاري للمركز كلاً من بام ستنزل، إضافة إلى قياديين في الحركة القومية المسيحية مثل دي جيمس كيندي، وبفرلي لاهي. وفي عام 2002، وقع مركز معلومات العفاف عقداً بقيمة 2,7 مليون دولار مع وزارة الصحة والخدمات الإنسانية لتطوير المعايير الرسمية لبرامج تشجيع الامتناع عن الجنس قبل الزواج.

تبلغ أونره من العمر خمسين عاماً، وهي أم لخمسة أولاد. وحين قابلتها في صيف عام 2005، كانت تصبغ شعرها باللون الأشقر، وكانت بتلك الهيئة تشبه – ولدرجة مدهشة – الممثلة ميليني غريفيث. وليس فيها شيء من فجاجة بام ستنزل؛ فهي متقدة، وفيها سمات الأخت الكبيرة التي يمكن للنساء الأخريات أن يأمنّها على أسرارهن. وتعارض أونره بشدة استخدام الواقيات، وممارسة الجنس قبل الزواج، وهذا هو

موقف ستنزل كذلك، غير أنها تبرز الامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج بصفته أداة من أدوات تمكين المرأة، وطريقة لاستعادة الشهامة والمروءة إلى المرأة؛ لأنها تعتقد أن المرأة جديرة بهذه الصفات. وتتحدث بنبرة غاضبة عن مصاب النساء اللاتي تقابلهن في مركز ألفا، ونكبتهن، وكيف أن التعليم الجنسي التقليدي خذلهن.

وقالت لي: «إنني من أنصار حقوق المرأة، ... وأنا سعيدة لأن أكون من مناصري المرأة. لكنني أعتقد أن كثيراً من صديقاتي في حركة مناصرة المرأة خدعن المرأة وأسأن لقضيتها، وأنا مستاءة من ذلك أيما استياء».

وتابعت أونره قولها: «تأتي إلينا الفتاة، ثم تعود بعد شهر، وهؤلاء الفتيات يتحدثن بلغة الثورة الجنسية: «افعلي ما تشائين، اخرجي واستمتعي بكل ما ترغبين من صنوف الجنس، أشبعي كل رغباتك الجنسية». إلا أنهن لم يحصلن على أي إشباع جنسي كان أم عاطفي. «لقد كنّ متألمات متضررات» كما تصف أونره، «كانت قلوبهن متفطرة، كن حاملات، أو مصابات بأمراض جنسية معدية. وكنت أنظر إليهن وأقول: «لماذا ترضين بهذا؟ ألا يوجد شيء في حياتكن أفضل من هذا؟».

ومن تاريخ حياة أونره يأتي الجواب بالإيجاب. ففي بداية حياتها خضعت أونره لعملية إجهاض، وهو فعل تأسف على حدوثه. جاء الحمل - كما أخبرتني - بعد أن اغتصبها زوجها الأول الجائر الذي كان يسيء معاملتها. وعن طريق عملها، تسعى أونره إلى مساعدة النساء اللاتي عشن تجربة مماثلة في نسيان الماضي والنظر إلى الأمام. وتقول: «إنه لشعور عظيم أن أرى الناس يعيشون حياة كريمة طيبة، وهذا يتحقق لي حين أقابل فتاة أجريت لها عملية إجهاض، أو حتى عدة عمليات إجهاض، فأقول لها: «لا تسمحي لأي إنسان أن يقول لك: إنك بسبب ما قمت به من إجهاض، أو بسبب اختيارك شريكاً غير مناسب، لن تستطيعي العثور على شريك كريم محترم في المستقبل. وإنك لا يمكن أن تكوني سعيدة. بل تستطيعين».

يعكس مبنى مركز معلومات العفاف - وربما من دون قصد - رحلة أونره الشخصية بين الخطيئة والخلاص، بين التعاسة والارتياح. إذ يوجد خلف المبنى حديقة صغيرة تعج بالورود والأزهار، وفي وسطها بركة للأسماك الملونة. وهي ملتجأ للنساء اللاتي

يرغبن بالجلوس في مكان هادئ، لتذكر عمليات الإجهاض السابقة، وندبها، والندم عليها. وتأتي بعض النساء في المساء، ويتركن خلفهن ألعاب الأطفال وبعض الأشياء التذكارية. وينتصب حائط رخامي على طرف الحديقة بوصفه (نصباً تذكارياً لغير المولودين)، وقد ثبتت عليه صفائح معدنية كتب عليها عبارات تأبين للأجنة التي أجهضت. وتلك العبارات تمزق القلب بما تبثه من مشاعر الذنب والندم. وهذه بعض الأمثلة :«الطفل كارلسن. 1963. ترى كيف كنت ستعيش لو بقيت حياً؟» وأخرى تقول: «الطفل أولويز. 1985. أقصى ما بلغت من الأنانية»، ووضع على مقربة من الحائط نصب صغير آخر لطفل على شكل ملاك يبكي.

كانت الحديقة مكاناً حزيناً كئيباً، أما في الداخل، فكانت أجواء المكتب تفوح بالمرح والنشاط. وكانت موظفة الاستقبال المبتهجة تستهل الرد على المكالمات القادمة بهذه العبارة: «إنه يوم رائع هنا في مركز معلومات العفاف!»، وكانت الصور المؤطرة في كل مكان، بما فيها عدة صور لأونره مع بوش، وواحدة ظهرت فيها مع زوجها الثاني آلين، وجيمس دوبسن، و فيد نويبل راعي خدمة القمة الكهنوتية، ومؤلف عدة كتب عن النظرة العالمية المسيحية.

وإلى جانب منطقة الاستقبال، توجد غرفة تضم متجراً يسمى (متجر الجنس والحب والعلاقات) حيث تباع فيه سلع (الصفاء). ويوحي الانطباع الحدسي للمكان برومانسية الفتيات، إذ زينت جدرانه الأرجوانية بكلمة: (حب) المكتوبة بالألوان الحمراء والذهبية وبعدة لغات. وحين زرت المكان، كانت موسيقى باشيلبل كانون الهادئة تسمع في الخلفية. وزيادة على الكتب المتعلقة بموضوعات العفة، والحشمة، والعلاقات المسيحية، يبيع المتجر خواتم للصفاء، بما فيها خاتم لؤلؤي بقيمة 199 دولاراً، يمكن أن يقدمه الأبوان هدية لابنتهما العذراء. وكان هناك (كوبونات العذرية) (وهذه «تستبدل قيمتها يوم الزفاف»)، وفستان عرس صنع من الساتان بحجم لعبة على شكل دوقية تدعى سيدة العفاف، وتمثل – بحسب ما هو مكتوب على العلبة – «تذكاراً للانتقال المقدس إلى الأمومة النقية».

وتستهوي حركة العفاف أنواط الأعراس وزخارفها؛ فهي تقدم الرؤية الرقيقة لبهجة الزواج التي نجدها في مجلات العرائس ذات الورق المصقول. فمثلاً يقترح دليل التدريب الصادر عن مؤسسة ويت على المعلمين إجراء حفلة زفاف صورية في الصف الدراسي: «استخدم فساتين أعراس مستعملة، فساتين إشبينة العروس، فساتين حفلات الرقص، فساتين حفلات الكوكتيل، بدلات تكسيدو مستعملة، معاطف، بدلات، الورود والأزهار، الكعك، الخاتم، لتجعل الاحتفال وكأنه حفلة زفاف حقيقية». ويطلب جدول الوظائف التي تعطى للطلبة، ويسمى (حفلة زفاف أحلامي) من الطلبة، «تصوّر أنك تملك كل ما تحتاجه من مال لإقامة أفضل حفلة زفاف تتخيلها. ثم صف هذه الحفلة!»[110].

وهذا كله في جزء منه محاولة منظمة لاستعادة الهيبة الاجتماعية للزواج، ولكنه أيضاً يمثل حنيناً أعمق من ذلك. فالناس من شاكلة أونره يقودون تمرداً على الجنس الذي يمارس بطريقة آلية خالية من الروح والعاطفة، الذي بات يهيمن على ثقافتنا المشبعة بأفلام الإباحية والفاحشة. إنهم يسعون إلى جعل (الحب) شيئاً ملغزاً مكتنفاً بالأسرار كما كان في القدم، واستعادة وعد القصص الأسطورية والمفرقعات. ويسعون إلى القضاء على القلق والارتياب التي تولدها احتمالات الطلاق لدى كثير من الناس، ويعتقدون أن باستطاعتهم تحقيق ذلك عن طريق إعادة تشكيل الجنس بوصفه صمغاً عاطفياً شديد الفاعلية، يمكنه لصق شخصين ببعضهما إلى الأبد.

وذكرت لي أونره أن الأشخاص الذين يؤخرون ممارسة الجنس إلى حين الزواج، ينعمون بلذة متزامنة في الجماع. وقالت: «إن الانسجام الهرموني بين الاثنين، يسهل عليهما الوصول إلى ذروة اللذة معاً. إنها رباط المشاعر، إنها المودة والألفة».

إلا أن هذا الرباط يمكن أن يفوت الأشخاص الذين يعاشرون أكثر من شخص جنسياً. وتابعت أونره قولها: «إن إفرازات الأشخاص تختلف من شخص لآخر»، وواضح أن ذلك يعوّق التناغم الذي يتطلبه (الانسجام الهرموني). لأن الأشخاص الذين يعاشرون أكثر من شخص «يخربون العمليات التي تقوم بها أجسامهم». (ومع

ذلـك، قالت أونره: إن الأشـخاص الذين يتعهـدون بعذرية ثانيـة يمكنهم مع الوقت استعادة توازنهم الهرموني).

يبدو لي أن هذا التحليل الفسـيولوجي الذي قدمتـه أونره فيه نظر، ولكن كان من السـهل على المرء مشاهدة قوة نظرتها الرومانسية. وتابعت أونره: «إن الأزواج الذين يعيشـون معاً كل هذه السـنين، يمكنهم أن ينظر الواحد منهم في عيون الآخر» ليشـعر بالعـاطفـة الجنسـيـة، ثم حدثتـني عن لقائهـا امـرأة أصـيـب زوجها بالشـلل من رقبتـه حتـى أخمص قدمه في حادث مؤسـف. قالت لي: «إن كل اللذة الجنسـية التي كنت أشـعر بهـا قبل وقوع الحادثة، الآن هو ينظر إلي، وينظـر كل منا في عيون الآخر لساعة، فنحس بتلك الرعشة. نجدها حقاً. أشعر بها عن طريق مشاعري وأحاسيسي، في قلبي».

وإعطـاء المرأة الناشـطة جنسـياً موانع حمل، يعـد في نظر أونـره، وكأننا نعاملها علـى أنها عاجزة عـن مثل هذا السـمو. إذا كانت الفتاة تنوي الامتناع عن ممارسـة الجنس، ولكنها تمارسـه علـى كل حال، برأي أونره، «فإنني سـأثق بها وبقدرتها على البدء من جديد، لا يهمني إن كانت سـتعيد الكرة سـبع مرات، أو حتى عشـرين مرة. سأصدقها في كل مرة تعود فيها، لأن ذلك هو المهم. لن أقول لها: «لا، إنك تبدين على درجة من الجاذبية الجنسية، ويبدو لي أنك شبقة، ولا أعتقد أن باستطاعتك الامتناع عن ممارسـة الجنس، لذلك سـنعطيك هذا الواقي الأنثوي، أو لنعطيك نوعاً آخر من الواقيات، أو لنعطيك رقعة هرمونية لمنع الحمل، لنعطيك كل هذه المواد الكيماوية».

وتضـيف أونـره، قد يهزأ النقاد بفكرة العذرية الثانويـة، «ولكن أليس من الأهمية بمكان أن نعطي الشـخص فرصـة ثانية، ونقول له: يمكنك البدء من جديد، ولا تقلق بالماضي، وتحدث عن المستقبل؟».

فسـألتها: «ولكن ماذا عن الفتيات اللاتي يستمعن إلى محاضراتها ولكنهن، مع ذلك يواصـلن ممارسـة الجنس دون اتعاظ؟ فأجابت: «لن أقدم لهن الواقيات، لا، أبداً. لأنهن سيرجعن إلي، وسيقلن لي: إن الواقيات لم تعمل».

تعارض صناعة العفاف استخدام الواقيات الذكرية معارضة مذهبية حاقدة لسببين اثنين. فكما أشارت أونره في حديثها، فإن كثيراً من المروجين للعفة يؤكدون بإصرار أن الواقيات لا تعمل، لذلك فإن من الخطورة بمكان الترويج لها، وتدريس الطلبة طرق استخدامها. إلا أن أسفل هذه الحجة العلمية اعتراض أيديولوجي على أصل فكرة الاتصال الجنسي المأمون. وهذان المعتقدان يعملان معاً بصفة متلازمة، ولذا فإن محاولة تناول موضوع الاتصال الجنسي دون التعرض لمضاعفاته العميقة هو محاولة متغطرسة للوقوع في الهلاك.

وهذا الرفض العنيد لمناقشة الطرق الآمنة لممارسة الجنس وموانع الحمل ـ ما عدا التركيز على معدلات فشلها ـ هو الذي يجعل البرامج التي تتبنى الدعوة إلى الامتناع عن الاتصال الجنسي وحده قبل الزواج مثيرة للجدل. ويعتقد القوميون المسيحيون أن أعداءهم يريدون تمهيد السبيل أمام المراهقين ذكوراً وإناثاً للإكثار ما أمكن من ممارسة الجنس، وفي سن مبكرة قدر الإمكان. ويلقي جيمس دوبسون بالمسؤولية عن معارضة تعليم العفة في المدارس على دوافع الجشع لدى منظمة بلاند بيرنتهود، وأنصار الإجهاض الذين ينتفعون من الأطفال المولودين خارج العلاقة الزوجية. وعبّرت أونره عن شكوك أكثر سوداوية، حين ذكرت لي أن عالم تدريس الجنس لطلبة المدارس مليء بالشواذ الذين يميلون إلى الاستمتاع الجنسي بالأطفال، وهؤلاء يرغبون أن يكون وصولهم إلى الأطفال سهلاً. وإضافة إلى هؤلاء، هناك أشخاص يسعون إلى إدخال أفكار مواقعة البهائم إلى صفوف الدراسة في المدارس الحكومية. وقالت: «هناك الكثير من الانحراف والفساد في هذا العالم، ممارسات جنسية عجيبة وغريبة ومستهجنة».

والحقيقة هي أن ثمة إجماعاً لدى المدافعين عن صحة الطفل، بأن من الأفضل للمراهقين عدم الاستعجال في ممارسة الاتصال الجنسي، وأنه كلما طال تأجيل ذلك، كان أفضل لهم. إن معظم الذين يروجون للتعليم الجنسي، وهم الذين يلقون

الكراهية والبغضاء من أونره ودوبسون ومن شابههم، هم في الواقع يشجعون الامتناع عن الاتصال الجنسي بوصفه أفضل الخيارات، ولكنهم يقولون أيضاً: إن المراهقين الذين سيمارسون الجنس - كما هو شأن بعضهم دائماً - بحاجة إلى أن نشجعهم على استخدام الواقيات. وقد تقول أونره: إنه لا يهمها أن تبدأ الفتاة من جديد سبع مرات أو تعاود عشرين مرة، إلا أنه مع عدم استخدام الواقي فإن احتمالات إصابة الفتاة بمرض جنسي معدٍ تكون عالية، مما يجعل البدء بداية جديدة أمراً مستحيلاً.

إذاً، هناك خلاف جوهري بين تدريس الجنس، وتدريس الامتناع عن ممارسة الجنس، وهذا الخلاف متعلق بالهدف. فهل يجب أن ينصب التركيز على حماية جسد المراهق، أم على حماية روحه. ويبدو أن معظم الكتب والبرامج التي تدرس الامتناع؛ مصممة على توجيه الطلبة صراحة أو ضمناً نحو الأخلاق الدينية المحافظة. وفي بعض الأحيان تبدو عملية التنصير هذه واضحة للعيان. فقد أعطي الطلبة الذين شاركوا في برامج سيلفر رينغ ثينغ إنجيلاً أعد خصيصاً لتدريس الامتناع عن الجنس، وردت فيه العبارة الآتية: «إذا قبلت عطية (الرب) إليك بالخلاص عن طريق ابنه، يسوع المسيح، فسيكتب اسمك في كتاب الحياة، وستعيش حياة أبدية في الجنة مع الرب. أما إذا اخترت رفض المسيح، فسيكون مصيرك النهائي في بحيرة النار. لا مراء في ذلك. القضية محسومة»[111].

وفي العادة تكون الرسالة أقل وضوحاً. وكثيراً ما تحيل مناهج تدريس العفة قرّاءها إلى مراجع للمساعدة الذاتية لمؤلفين إنجيليين مثل جيمس دوبسون. وتكرر معتقدات الإنجيليين بوصفها حقائق: فمثلاً يذكر كتاب الوقار الجنسي أن الإجهاض يزيد من مخاطر الإصابة بسرطان الثدي، وهي مقولة يكثر معارضو الإجهاض ترديدها، ولكنها محل اعتراض من قبل الغالبية العظمى في الاتجاه العلمي السائد. أما كتاب الجنس والشخصية فيلمّح إلى أن الشذوذ الجنسي هو خيار يتخذه الفرد، ويسرد قصة (جيري) الذي «عاف طريقة حياة الشذوذ الجنسي التي اختطها لنفسه. وفي ضوء خطر مرض الإيدز، قرر (جيري) أن يغيّر مجرى حياته. ولكن قراره جاء متأخراً. إذ كان الفيروس قد تمكن منه ...»[112].

وتتضح الكتب التي تحض على العفة، والامتناع عن ممارسة الجنس بنعي الإنجيليين لأمريكة بسبب انزلاقها في التفسخ الأخلاقي. وقد ضم دليل الطلاب لمواجهة الحقيقة رسماً كاريكاتورياً لفتاتين مراهقتين تتحدثان عن انتشار الأمراض الجنسية المعدية والإيدز:

تقول إحدى الفتاتين: «أتساءل إن كانت الطبيعة تحاول أن تقول لنا شيئاً ما عن الجنس».

فترد عليها الأخرى: «يقول السيد ماكدونالد: إن الجنس مثل لعبة الكرة. من يلعب وفق القواعد، فهو آمن».

الأولى: «السيد إيغان يقول: بل هو أقرب إلى الحرب».

الثانية: «وماذا يعني ذلك؟».

الأولى: «إنه يقول: إن الثورة الجنسية قد انتهت ... وما نفعله الآن هو العناية بالجرحى ودفن القتلى»[113].

♦

تعد قصص المجتمع الفاسد الذي يحتاج إلى الخلاص قوة دافعة لحركة دعاة الاستعفاف. ومع أنها قصص غير محكية في الغالب، إلا أنها قد تؤدي إلى سلوك متعالٍ وعقابي، حتى من الأشخاص المتعاطفين مثل أونره، تجاه الأشخاص الذين يرفضون رؤية النور.

فأونره لا تريد رؤية قيمها محترمة وحسب؛ بل تريد فرض هذه القيم بقوة القانون. وقد وجهت إلي السؤال الآتي: «هل سبق أن توقعت أن يأتي يوم لا يسمح فيه للناس بالتدخين في الطائرات؟... إنني أذكر كيف كنت أشعر بالإعياء في أثناء سفري بالطائرة». أما الآن، كما تقول: فإنها تبتسم حين ترى المدخنين وقد حصروا في الغرف الصغيرة الحقيرة ـ وقد عبرت عنها بالأقفاص - المخصصة لهم في المطارات.

obeikandl.com

وتابعت أونره: «أتدرين بماذا أفكر؟ إنني أفكر في الأشخاص الذين يمارسون الجنس ـ خارج العلاقة الزوجية ـ وقد وضعوا في تلك الأقفاص الصغيرة». إنها تريد أن تعيد فرض حظر على العلاقات الجنسية خارج الزواج، وتريد من الحكومة أن تساعد في فرض هذا الحظر.

تعتقد أونره أنه لا يمكن للناس العيش بسعادة وصحة ما لم يتبنّوا معاييرها الجنسية. فهي تصف الناس الذين يرفضون الامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج في حياتهم، بقولها: «إنهم منشغلون بنظرتهم العالمية، ويعتقدون أنه لا بد أن يكون هناك دواء ما، مسحوق ما، علاج ما يمكن أن يحفظ المرء؛ كي لا يكون هناك حاجة للسيطرة على نفسي. ليس هناك شيء من هذا القبيل. عليك أن تسيطر على نفسك. عليك أن تتعلم ما يعنيه (الانتظار). عليك أن تتعلم ما يعنيه «ليس الآن». إننا نسعى إلى اللذة الآنية في كل شيء؛ «يجب أن أكون قادراً على فعل هذا إن كنت أريد فعله». حسناً، عليك أن تعي أن هناك نتائج وعواقب لذلك».

لا يوجد شيء يثير حنق دعاة العفة مثل فكرة: (الجنس المأمون). إذ أعلنت ستنزل أثناء حديثها في مؤتمر استعادة أمريكة للمسيح قائلة: «من المستحيل – من الناحية الإحصائية – أن تمارس الجنس مع شخص ليس بكراً، وألا تصاب بمرض جنسي معدٍ». ويعقد كتاب اختيار الأفضل – وهو أحد أوسع الكتب المنهجية التي تقتصر على تدريس الامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج – مقارنة بين ممارسة الجنس قبل الزواج، ولعبة الروليت الروسية للقمار، قائلاً: «إن احتمالات المخاطرة الناتجة عن فشل الواقي الذكري، هي أكبر من احتمالات سقوط الكرة الصغيرة في الصندوق»[114].

السلاح الأول:

تعتمد صناعة العفاف في هجومها على استخدام الواقي الذكري، على تحريف البيانات العملية، ولكن تبقى حقيقة واحدة في ذلك الخطاب: وهي أن الواقيات توفر

قليلاً من الحماية ضد الإصابة بفيروس الورم الحليمي، وهو أوسع الأمراض الجنسية السارية انتشاراً في الولايات المتحدة. وبناءً على ذلك أصبح هذا الفيروس عنصراً مهماً لدى حركة تشجيع الإحجام عن ممارسة الجنس، وقد وصفته أونره بأنه (السلاح الأول الذي نملكه)[115].

وبحسب ما يقوله مركز السيطرة على الأمراض والوقاية منها (سي دي سي) فإن 50 إلى 75 بالمئة من الرجال والنساء الناشطين جنسياً يصابون بالتهاب فيروس الورم الحليمي في الجهاز التناسلي في مرحلة ما من حياتهم. وبسبب إمكانية انتقال المرض عن طريق ملامسة الأعضاء التناسلية التي لا تغطيها الواقيات، فإنه لا يوجد وسيلة معتمدة سوى الامتناع عن ممارسة الجنس لتجنب هذا المرض. (وبحسب رأي مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها، فإن «أثر استخدام الواقي في منع الإصابة بفيروس الورم الحليمي ما زالت غير معروفة»).

وهناك أكثر من ثلاثين صنفاً من الأمراض الجنسية السارية التي يسببها فيروس الورم الحليمي، ومعظمها غير مضر. ويقول مركز السيطرة على الأمراض والوقاية منها إن: «معظم الأشخاص الذين يصابون بفيروس الورم الحليمي، لن تظهر عليهم أي أعراض، وأنهم سوف يتعافون منه دون علاج»، ومع ذلك، يذكر المركز أن عشرة أصناف من الإصابة بهذا الفيروس «يمكن أن تتطور، في حالات نادرة، إلى سرطان عنق الرحم».

وفي حين أن فاعلية الواقي في درء الإصابة بفيروس الورم الحليمي غير واضحة، إلا أن الربط بين استخدام الواقي، وتدني حالات الإصابة بسرطان عنق الرحم؛ هو أمر وارد!. ومع ذلك فإن موقف صناعة العفاف صحيح فيما يتعلق بالإصابة بفيروس الورم الحليمي، إذ لا يوجد ممارسة جنسية آمنة تحول دون الإصابة به. إن فيروس الورم الحليمي مشكلة منذرة بالخطر، تستدعي تثقيف النساء وتوعيتهن

لخطرها، ويستحق أنصار تشجيع الامتناع عن الجنس الاعتراف لهم بفضل إبراز هذه القضية.

إلا أن جميع ما تنشره حركة الإحجام عن الجنس، يتجاهل حقيقة مهمة. وهي أن النساء المصابات بالأصناف الخطرة من فيروس الورم الحليمي، يمكنهن تجنب الإصابة بسرطان عنق الرحم عن طريق الفحص الدوري. إن نشر هذه المعلومة قد يؤدي إلى إنقاذ حياة كثير من النساء عن طريق تشجيعهن على إجراء فحوص دورية، غير أن هذه المعلومة لا تكاد تذكر في الكتب التي تشجع الامتناع عن ممارسة الجنس، ولعل السبب في ذلك هو أنها ستخفف من فاعلية استخدام ذلك الفيروس كسلاح خطابي.

والحقيقة أن صناعة العفاف بحاجة إلى الخطر القادم من فيروس الورم الحليمي. ولعل هذا يفسر لنا أنه حين ظهر لقاح للوقاية من هذا الفيروس عام 2005، لم يملك عدد من رواد حركة تشجيع الامتناع عن ممارسة الجنس إخفاء فزعهم منه. وهم الذين أمضوا السنين في التحذير من مخاطر هذا المرض.

وبعد الانتهاء من عدة تجارب ناجحة لهذا اللقاح في الوقاية من فيروس الورم الحليمي، ستقوم كل من شركة كلاكسوسميث كلاين، وشركة ميرك لصناعة الدواء بتقديم طلب للحصول على التراخيص المطلوبة؛ بغية تسويق اللقاح. إلا أن الجماعات الدينية، وكما تذكر مجلة نيو ساينتست البريطانية في عددها الصادر في إبريل 2005، «تعد عدتها لمعارضة إجازة هذا اللقاح».

ونقلت المجلة عن بريجيت مار من مجلس أبحاث الأسرة قولها: إن «الامتناع عن ممارسة الجنس هو أفضل طريقة للحيلولة دون الإصابة بفيروس الورم الحليمي... إن حقن الفتيات المراهقات بهذا اللقاح يحمل في طياته خطراً على حياتهن؛ لأنهن سيعدون ذلك رخصة في ممارسة الجنس قبل الزواج»[116].

obeikandl.com

تأسيس الشرعية

إن من المتعذر معرفة ما إن كان الإنجيليون من اليمين المتطرف سيتدخلون في قرارات وكالة الغذاء والدواء بإقرار المطاعيم، أو في حملات التطعيم التي تتم في أرجاء البلاد كافة. ذلك أن وكالة الغذاء والدواء مثل غيرها من المؤسسات العلمية في ظل حكم بوش، قد أضحت مسيَّسة إلى حد بعيد. إذ قام بوش بتعيين أعداد كبيرة من الأشخاص المنتمين إلى حركة القوميين المسيحيين في اللجان التابعة لهذه المؤسسات والوكالات الحكومية. ونجح هؤلاء في تعديل مسار السياسات بما يتناسب وأيديولوجياتهم. لذلك فإن مما يبعث على الاستشعار بالخطر ملاحظة أن أحد الذين رشحهم الرئيس لعضوية الهيئة الاستشارية المكونة من خمسة عشر عضواً لتقديم التوصيات للحكومة عن اللقاحات المضادة لفيروسات الأمراض الجنسية، هو شخص اسمه ريغنالد فينغر، وهو محلل طبي سابق في مؤسسة التركيز على الأسرة. وفي أكتوبر من عام 2005، تحدث فينغر إلى صحيفة واشنطن بوست عن هذه اللقاحات، قائلاً: «هناك أشخاص يشعرون بأن هذه اللقاحات ستولد شعوراً لدى الناس بأن الممارسات الجنسية ستصبح أكثر أماناً بعد حقنهم بهذه المطاعيم، وربما تؤدي إلى مزيد من الممارسات الجنسية، بسبب شعورهم بالأمان». (ثم نأى بنفسه عن هذا الموقف قائلاً: إنه أرجأ حكمه على هذه اللقاحات إلى أن تخضع لمراجعة رسمية)[117].

إن العجرفة التي تمارسها حكومة بوش تجاه الحقائق التجريبية، موثقة على نطاق واسع. ولعل أبلغ صور هذا التوثيق ما قام به اتحاد العلماء المهتمين. إذ أصدرت المجموعة في فبراير من عام 2004 بياناً وقّع عليه أكثر من ستين من العلماء البارزين ـ بينهم عشرون من الحاصلين على جائزة نوبل – اتهمت فيه حكومة بوش بالتلاعب السياسي غير المسبوق بالحقائق العلمية. ومن بين الطرق التي تسلكها الحكومة لتحقيق ذلك – بحسب ما جاء في البيان – «هو وضع أشخاص غير مؤهلين مهنياً، أو الذين يوجد لديهم تعارض واضح في المصالح، مع مناصبهم الحكومية، أو في اللجان الاستشارية العلمية».

ومـن الأمثلـة على ذلك – كما يذكر البيـان – تعيين دبليو ديفيـد هاغر في اللجنة الاستشارية بشأن الصحة الإنجابية التابعة للوكالة الفدرالية للدواء والغذاء. ويصف البيـان هاغـر بأنه: «طبيب نسـاء وتوليـد، بمؤهلات ضـئيلة، وآراء سياسـية حزبية مغاليـة»، ولاحـظ البيان أن «أشـهر ما يعرف بـه هاغر هو مشـاركته في تأليف كتاب عنوانه: (كما كان المسـيح يهتم بالمرأة) ويوصي فيه بقراءة أجزاء معينة من الإنجيل كعلاج لمتلازمة آلام الطمث».

وينتمي هاغر – وهو من المقربين من جيمس دوبسون – إلى مجموعة من مفكري الحركـة القومية المسـيحية التي تتولى الرد على أعـداء الحركة، والعمل على تزويد الحركة بنظريات مسبوكة بقالب علمي يضفي عليها الشرعية. وهو عضو في المجلس الاستشـاري التابع للمعهد الطبي للصحة الجنسـية، وهو معهد فكر يتولى التصدي لتدريـس الجنـس في المدارس الحكوميـة، تمـاماً كمـا يتـولى معهد ديسـكفري التصدي لتدريس التطور والانتـخاب الطبيعي. وتأسـس هذا المعهد عام 1992 على يـد جـو ماكلهاني، وهو طبيب نسـاء إنجيلـي مقرب من جورج دبليـو بوش، ويقوم المعهـد بترجمة النظرة المسـيحية العالميـة للجنس إلى لغة علمية، ونشـر تقاريـر تبـدو عليها السـمة العلمية، بهـدف تقويض الحقائق العلميـة الدارجة عن فاعلية الواقيات الذكرية، وكذلك لتشجيع تدريس العفة والامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج*.

وفي عـام 1995، وجهـت مديريـة الصـحة في ولايـة تكسـاس رسـالة إلى معهـد ماكلهاني، منتقدة محاضـرة كان يقدمها في مختلف أرجاء الولاية. وتضمنت الرسالة نقداً مفصلاً من إعداد اثنين من الأطباء، وممرضة مرخصة، إضافة إلى مدير قسم مكافحـة الإيدز، والأمراض الجنسـية المعديـة والأوبئة، التابع لحكومـة الولاية، وفنَّد

* كتب ماكلهاني، تقديم كتاب الجنس والشخصية؛ وهو من الكتب المنهجية التي تدرس الامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج.

النقد محاضرة ماكلهاني فقرة بفقرة. وأشار النقد إلى عدد من التصريحات الخاطئة و(السخيفة) في دروس ماكلهاني. وجاء في الرسالة أن «بعض المعلومات التي قدمت في محاضرات ماكلهاني تعاني من التحيز والمحاباة، ... وأنها تنزع نحو إبراز المعلومات الشاذة على أنها (براهين) على عدم فاعلية الواقيات الذكرية، بدلاً من تقديم تلك التقريرات في السياق العام لجملة المعلومات. والمعلومات الوحيدة التي نقلها الدكتور ماكلهاني في محاضرته هي المعلومات التي تدعم موقفه المتحيّز في الموضوعات التي يتناولها. في حين أن الأمانة الفكرية تتطلب منه أن يقوم بعرض كل المعلومات».

وفي هذه الأيام، يلقى المعهد الطبي للصحة الجنسية مزيداً من الاحترام من الحكومة. وبفضل بوش، أبرم المعهد عقوداً مع الحكومة بقيمة 1,5 مليون دولار تتعلق بتدريس الامتناع عن ممارسة الجنس في المدارس الحكومية، إضافة إلى أبحاث خاصة بالأمراض الجنسية السارية. كما قام بوش بوضع ماكلهاني في المجلس الاستشاري الرئاسي عن مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) وكذلك في اللجنة الاستشارية لمدير مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها. كما تحضر شخصيات رفيعة المستوى من موظفي وزارة الصحة والخدمات الإنسانية المؤتمر السنوي الذي يعقده المعهد.

والآن، أصبحنا في وضع يقوم فيه المعهد الطبي وأنصاره بتحديد مسار موظفي الصحة الحكوميين، وليس العكس. وكما وثق اتحاد العلماء المهتمين، فإن حكومة بوش استبدلت وثيقة الحقائق المتعلقة بالاستخدام السليم للواقيات الذكرية الصادرة عن مركز السيطرة على الأمراض والوقاية منها، ووضعت مكانها وثيقة تركز على معدلات فشل الواقيات الذكرية، وعلى فاعلية الامتناع عن ممارسة الجنس كبديل عنها. والأهم من ذلك، أن هاغر نجح في عرقلة إقرار حبوب منع الحمل الاضطرارية التي يمكن شراؤها من دون وصفة طبية، والتي يطلق عليها: (حبة صباح الغد)، وذلك على الرغم من الإجماع العريض على سلامة تناولها.

ولأن (حبة صباح اليوم المقبل) تكون فاعلة إذا أخذت في غضون اثنتين وسبعين ساعة من ممارسة الجنس من دون وقاية، فقد بذلت الجماعات المهتمة بصحة المرأة

جهوداً كبيرة من أجل جعل هذا الدواء متوافراً من دون وصفة طبية. وفي عام 2003، صوت المجلس الاستشاري الذي يضم في عضويته هاغر، بغالبية 23 صوتاً مقابل 4 لمصلحة إقرار الدواء من دون وصفة طبية. إلا أنه وبعد خطوة في غاية الغرابة، رفضت وكالة الدواء والغذاء الفدرالية نصيحة المجلس، معللة قرار الرفض بأن زيادة توافر وسائل منع الحمل الاضطرارية في متناول الناس سيساعد في زيادة الممارسات الجنسية (الخطرة) بين المراهقين[118]. ويوجد لدى الوكالة عدد كبير من الدراسات المستقلة التي تناقض مثل هذه الإشاعات الكاذبة. ومع ذلك، وبعد أن تلقت الوكالة مذكرة هاغر، نبذت توصية المجلس، ورفضت السماح ببيع موانع الحمل الاضطرارية من دون وصفة طبية. (وفي أغسطس من عام 2005، استقالت سوزان وود، المسؤولة عن قسم صحة المرأة في وكالة الغذاء والدواء من وظيفتها؛ احتجاجاً على استمرار رفض الوكالة السماح بجعل دواء منع الحمل الاضطراري (حبة صباح اليوم المقبل) متوافرة من دون وصفة. وكتبت في رسالة إلكترونية بعثت بها إلى أحد زملائها في العمل تقول: «لم أعد أحتمل العمل في وكالة تضرب بعرض الحائط الأدلة العلمية والمخبرية التي خضعت للتحقيق، وأوصت باعتمادها الجهات ذات التخصص»[119].

وقد سبق أن تبجح هاغر - الأصلع، ذو الأنف المعقوف والشارب الرفيع الذي يتخلله الشيب - بشأن دوره في الإبقاء على ذلك الدواء ممنوعاً إلا بوصفة طبية. وقال في أثناء إلقائه موعظة في كنيسة كنتكي الإنجيلية التابعة لكلية أوسبري في أكتوبر من عام 2004: «لقد طُلب مني أن أكتب رأي الأقلية المعارضة في التوصية التي رفعت إلى مدير وكالة الغذاء والدواء الفدرالية. وهذه هي المرة الثانية على مدى خمسة قرون التي لم تلتزم فيها الوكالة برأي اللجنة الاستشارية، وتم رفض التوصية».

وقال هاغر: «لقد قدمت حججي من وجهة نظر علمية، وتولى (الرب) العناية بالمعلومات، واستخدمها عبر رأي الأقلية للتأثير في صنع القرار»، وأضاف: «ومرة أخرى، ما أراده الشيطان أداة للشر، حوّله (الرب) إلى أداة للخير»[120].

لكن من المؤكد أن هاغر لم يكن يناقش من منطلق علمي. بل كان يستخدم لغة علمية لتسويغ موقفه المسيحي الإنجيلي. وكان يفعل ما فعله ند ريون حين كان يعلم

تلاميذه في منظمة جيل يشوع: «بأخذ النظرة العالمية الإنجيلية الراسخة والحازمة»، وصياغتها بلغة «تكون مقبولة لدى الطرف المقابل».

يملك ريون، وكل من وافقه الرأي، كل الحق في استخدام إستراتيجياته الخطابية واللغوية، مهما كان ذلك مزعجاً بالنسبة للأشخاص الذين لا يوافقون على أجندتهم. غير أنه حين تعمل الحكومة بهذه الطريقة، فإنها بذلك تجعل من كل الأمريكيين غير الإنجيليين (الطرف الآخر). ولم يعد غير المتدينين جزءاً من الحوار؛ لأن الحجج والأسباب المقدمة في النقاش العام طالها التزوير والتحريف. والمؤمنون فقط هم الذين يملكون حق الاطلاع على الأسباب الحقيقية التي تقف وراء ما تفعله الحكومة. وتعمل وزارة الصحة والخدمات الإنسانية كما لو أنها مركز ضخم لطوارئ الحمل، تمارس التحايل والتضليل باسم تحقيق خير أسمى.

♦

يوجد في كتاب أصول الاستبداد للكاتبة حنّة آريندت أصداء لقيام حكومة بوش برفع مكانة المعهد الطبي للصحة الاجتماعية إلى مرتبة مؤسسة علمية جديدة. إذ كتبت آريندت تصف كيف تقيم الحركات الشمولية (جمعيات شبه مهنية) للمعلمين، والأطباء، والمحامين، ومن شابههم، لتضاهي الجماعات المهنية العادية؛ بغية تقويض شرعيتها ولكي تحل محلها في النهاية. وقالت في هذا الخصوص:

> «ليس لأي من هذه المؤسسات قيمة مهنية أكثر من محاكاة قوات الميليشيا النازية الخاصة للجيش النظامي، غير أنهما معاً يخلقان مظهراً خارجياً لعالم مثالي تستنسخ فيه كل حقيقة من العالم غير الشمولي استنساخاً صورياً زائفاً على شكل خدعة مضللة.
>
> وطريقة الازدواج هذه هي بالتأكيد عديمة الفائدة في قلب الحكومة بطريق مباشر. غير أنها أثبتت فاعليتها في تقويض المؤسسات القائمة والفاعلة ووزعزعتها، وكذلك في (إفساد وتفسّخ الوضع الراهن)، وهو ما تفضله المنظمات الشمولية بدرجات متفاوتة على المواجهة المفتوحة

بالقـوة. وإذا كانت مهمة الحركات هـي أن «تنخر طريقها كثل البولب كي تصـل إلى كل مواقع السـلطة»، فإن عليهم أن يكونوا مستعدين لأي موقع اجتماعي وسياسي محدد[121]».

إن الوضع الأمريكي الراهن - وهو نظام أثبت نجاحه واطراده بالرغم من كونه نحو غـير مثالي، وفق قواعد عقلانية محددة، واحـترام الحقائق التجريبية المؤكدة - آخذ بالتفسـخ والتحلل. وما شـاهدناه حتى الآن من الأكاذيب الفرديـة، أو انتقاص الحرية ليسـ على درجة من الخطـورة تعادل الظاهـرة الأخطر؛ وهـي أن الحكومة تدار وفق أوهام أيديولوجية. ولو قدّر للقوميين المسـيحيين أن يطبقوا أجندتهم، فلن تكون وزارة الصـحة والخدمات الإنسـانية هي وحدها التي تعمل بهذه الطريقة. إن في ذهن قادة الحركة أهدافاً أكبر من ذلك بكثير.

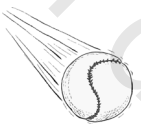

obeikandl.com